مراجعة كتاب

شرق وغرب: الشرخ الأسطوري

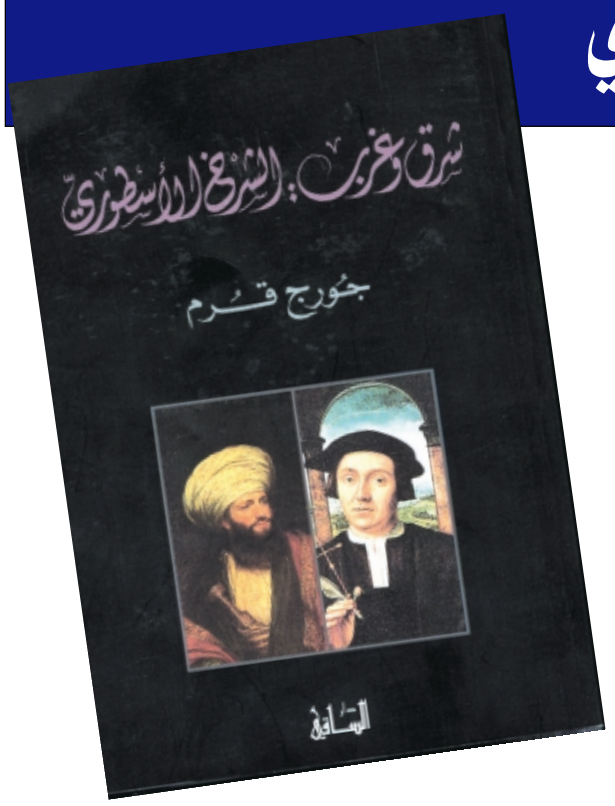

إسم الكتاب:شرق وغرب: الشرخ الأسطوري»
المؤلف:جورج قرم
عدد الصفحات:٢١٥ صفحة من الحجم المتوسط
الطبعة الاولى:٢٠٠٣
الناشر:دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٣ - مترجم عن الفرنسية

عرض وتعليق: جميل هلال

جورج كرم من الكتّاب العرب الذين يألفون بالفرنسية حول قضايا ذات طابع كوني وإقليمي. وهو يتناول في هذا الكتاب ما يسميه بـ »الشرخ الأسطوري بين الشرق والغرب«. غير أنه يركّز حديثه حول الأنماط المفاهيمية التي يتم عبرها التفكير حول العالمين العربي والإسلامي (كونهما باتا يعتبران ممثلين للشرق) وفيما يخص أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية (باعتبارهما ممثلتين للغرب). وعلى الرغم من أن المؤلف ينطلق من مقولة أن هذا الشرخ وهمي ولا وجود له على أرض الواقع وأنه يوجد فقط في »مخيلة الإعلام وبضع الأكاديميين النافذين وأركان الإدارة الأمريكية الحالية الذين روجوا لمقولة صراع الحضارات أو الأديان«، فإنه سرعان ما ينساق في حديثه عن شرق وغرب باعتبارهما كيانين قائمين على الأرض فعلاً، وليس في مخيلة البعض فقط. فهو يتعاطى معهما أحياناً كمناطق جغرافية (ما يعرف بالشرق الأوسط وشمال أفريقيا)، وأحيانا أخرى كحضارات أو ثقافات (الحضارة العربية والإسلامية)، بالإضافة إلى اعتبارها مناطق ذات سمات اقتصادية واجتماعية معينة. وهو يرى أن هناك صراعاً محتدماً يدور بين الشرق والغرب ويستهدف من كتابه الحد من هذا الصراع »الذي يرتوي، برغم التطور المزعوم للعلمانية، من مَعين النماذج التوراتية، سواء أكانت يهودية، أم مسيحية، أم إسلامية« (صفحة ١٥٩-١٦٠).

كتاب جورج قرم كتاب محير لأكثر من سبب:

أولاً: لأن موضوعه متنقل أو زئبقي، فهو ما أن يتناول فكرة حتى يقفز إلى أخرى، ما يترك القارئ في جريان مستمر وراء السرد المتقطع لموضوعات وإشكاليات غير مكتملة التكوين أو النقاش. ومن هنا يجد القارئ نفسه في حيرة في تحديد موضوع الكتاب: هل هو حول الاستشراق والاستغراب، أم هو حول التحولات في الفكر السياسي الأوروبي في القرنين الأخيرين؟ وهل هو معني بالتأمل في نتائج مرحلة انتهاء الحرب الباردة ورمزية أحداث الحادي عشر من أيلول العام ٢٠٠١، أم أنه معني بالعولمة الاقتصادية والثقافية؟ هل يتناول الفكر الإسلامي السياسي من مدخل المواجهة المفترضة بين الغرب الأوروبي والشرق الإسلامي؟ أم أن الكتاب مسعى للإجابة عن سؤال قديم، ألا وهو لماذا تقدم الغرب وتأخر العرب؟ وكل هذه الموضوعات تظهر وتختفي في الكتاب، ما يجعل العثور على فكرة أو إشكالية أمراً مستحيلاً، وحتى أن الشرخ بين الشرق والغرب شرخ وهمي تبقى بدون جدلية مقنعة أو موضوعة قائمة بذاتها.

ثانيا، لأن معظم الآراء التي ترد في الكتاب مصاغة بلغة تقريرية بعيدة عن النقاش المعمق والتأمل الموضوعي، هذا بغض النظر عن صحة أو عدم صحة هذه الآراء، ولذا نجد المؤلف يستسهل عملية الوعظ واللغة الأخلاقية.

ثالثاً: يقع المؤلف بشكل متكرر في المطبات ذاتها التي يحذرّنا، وعن حق، من الوقوع فيها، بما في ذلك الوقوع في شبكة الأكليشيهات والأحكام المسبقة »التي تحاصرنا من كل جهة في الشرق كما في الغرب«.

ولعل تلخيص أبرز الآراء التي يتناولها الكتاب هي الطريقة الأفضل لإعطاء القارئ صورة عن مضمونه والرسالة التي يريد المؤلف إيصالها:

-يرى المؤلف أن علمانية الغرب ناقصة ومشوهة وشكلية الطابع، ومن هنا فهو يدعو إلى علمانية لا تخضع لخصوصية الأوضاع الدينية - السياسية، كما تشكلت عند الغرب. وهنا يورد جورج قرم جملة من المترادفات مثل: »الفكر الغربي المعاصر ما زال رهينة لنرجسية وطدّت بشكل حاسم »نظام البديهيات« الفكرية في كتابات هيجل«؛ ومثل »الغرب حبس نفسه في جدار من العولمة الفكرية والثقافية«؛ ومثل »الثقافة الغربية »فرنجت« العالم« وباتت تتجسد في ما نسميه اليوم »العولمة، يرافقها خطاب نرجسي رسولي ذو رسالة نبوية في آن«. ويرى المؤلف أن الثقافة الغربية تمتاز بعلمانية »مخادعة« لأنها بقيت في المضمون رهينة الآلية الخفية للديانات التوحيدية (ص ٣٢).

- يرى قرم أن الشرخ بين الغرب والشرق انحسر ليكون بين الغرب (أوروبا والولايات المتحدة) وبين الشرق العربي والإسلامي بعد فورة الإنجازات الاقتصادية والعسكرية التي تحققت في الشرق الأقصى. وهو لا يرى أن الدين هو محور الشرخ بين العالمين بدليل الشرخ بين الكنسية الشرقية والكنيسة الغربية سابقاً، وداخل الكنسية الغربية لاحقاً (كاثوليك وبروتستانت)، وبين السنة والشيعة كذلك. وهو يرى في الشرخ الذي صنعه الفكر الغربي بين الآريين والساميين شرخ مصطنع بعد أن أعادت الثقافة الغربية، حسب رأي المؤلف، دمج التراث اليهودي في الثقافة الغربية على حساب لإقصاء متفاقم للإسلام، وبعد تكريس دولة إسرائيل وتحويل »الهولوكوست« إلى قربان يقدم على مذبح إنشاء دولة إسرائيل«.

- يستفسر قرم حول أسباب النهضة الأوروبية، لكنه سرعان ما يجيب عليه بما هو بحاجة إليه كسؤال، كنشوء الرأسمالية والثورة الصناعية والثورة الفرنسية، حيث تم استبدال الحاكم المطلق بالكائن الجماعي الممثل في »الأمة«، معتبرا الأخير عاملاً حاسماً. وفي المقابل، شهد الحكم العباسي انغلاقاً دينياً وتجميداً نهائياً للمدارس الفقهية. لكن المؤلف لا يفسر لماذا نمت الرأسمالية الصناعية في الغرب قبل غيرها من المناطق، ولماذا تمأسست الديمقراطية الليبرالية هناك قبل أن ترسّخ نفسها في بلدان أو مناطق أخرى. ومن هنا لا يبدو رده على ما يدعيه البعض في الغرب من خصوصية في التطور الاقتصادي والمجتمعي والعلمي مقنعاً، فلا يكفي القول إن هكذا ادعاءات هي تعبير عن نرجسية، ومجرد تداول لأساطير من قبل الغرب. فلا مجال لإنكار أن ما حصل في الغرب، من تحولات اقتصادية واجتماعية وثقافية، يتمايز عما حدث في مناطق أخرى. كما أن الغرب، كما يلمح أحياناً المؤلف ليعود ليقفز عن ذلك، ليس كتلة متجانسة من الرؤى والأفكار والإثنيات والديانات والطوائف والأيدلوجيات. وتحويل الغرب، أو الشرق، إلى كتلة متجانسة وقوع في الجوهرانية التي يحذر المؤلف منها، والتي يقع فيها المستشرقون والمستغربون (من الحركات الدينية الأصولية على أصنافها) على حد سواء في تسويق تنميطاتهم وتوصيفاتهم للمجتمعات والدول.

- يرى المؤلف أن موضوعة الهوية والانتماء، وبأنماط فكرية معينة، استدعيت في بدايات القرن العشرين لتبرير إنشاء دولة إسرائيل، ولاستخدام الإسلام لمحاربة الشيوعية عبر إنشاء منظمة المؤتمر الإسلامي العام ١٩٦٩ لتقويض دور وتوجهات منظمة دول عدم الانحياز التي امتازت بنظرة علمانية وبرؤى تقدمية. ويشير إلى أن محاربة الشيوعية دفع إلى استنفار الهويات الدينية، وأن انهيار الاتحاد السوفيتي أعاد المسألة القومية إلى الواجهة. لكن المؤلف، وللأسف، يميل إلى تسطيح الأمور، حيث يعتبر أن الغرب، ذا الجذور الإغريقية-اليونانية، انكفأ إلى خطاب يتبنى قيماً وجذوراً يهودية-مسيحية (ص ١٤٢)، ويعتبر أن هذا لا يعود إلى أيديولوجية معينة تولدت بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وصعود اليمين الأوروبي إلى السلطة، بل يعود إلى وجود قبول الثقافة الأوروبية لأهمية التوحيد »في أعماق النفس الأوروبية على بالرغم من انتشار العلمانية« (ص. ١٤٥).

- يتبنى المؤلف مقولة أن الإسلام دين علماني في الوقت الذي يشكّك فيه بعلمانية الغرب. ويستند في هذه المقولة إلى أن »مفهوم الفصل بين الزمني والروحي الذي كان أحد سمات الحداثة الأوروبية، لا معنى له في الإسلام؛ لأنه لا وجدود فيه لمؤسسات دينية وروحية يديرها رجال دين، مستقلة عن النظام السياسي المدني أو تهيمن عليه، كما كان الحال في المسيحية الغربية« (ص. ١٦٥). والواقع أن السلطة الدينية الإسلامية، بغض النظر عن أشكال تعبيراتها المؤسساتية، خضعت دوماً، مع استثناءات محدودة جداً كما في الحالة الإيرانية، للسلطة السياسية. ويدعم المؤلف رأيه بالاستشهاد بأن مفكرين إسلاميين كثيرين أبرزوا فكرة علمانية الدين الإسلامي عبر التركيز على الطابع التاريخي والأيديولوجي لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية المتعلقة بتنظيم سلطة الخليفة (ص. ١٧١). وإن كان صحيحاً أن الإسلام، كما الديانات الأخرى، متعدد التفسيرات والمدارس، إلا أن إشكالية العلمانية ترتبط، أساساً، بمأسسة استقلالية الهيئات والشؤون الدينية عن شؤون إدارة الدولة وسياستها ومؤسساتها، ليس في النظرية فقط، بل، وهو الأهم، في الممارسة العملية. وإلا كيف نفسر النجاح الذي حققه الإسلام السياسي في إطار استخدام الدين الإسلامي (أو بالأحرى تيارات معينة له) من قبل دول وفئات حاكمة عربية وإسلامية وأمريكية لمحاربة تيارات القومية العربية العلمانية والاتجاهات اليسارية والشيوعية.

- يختزل المؤلف الخطاب الغربي سياسياً إلى خطاب المحافظين الجدد (فرض هيمنة الإمبراطورية الأمريكية على العالم)، واقتصادياً إلى خطاب الليبراليين الجدد، والمتمثل في الاقتصاد الحر وانسحاب الدولة من الحقل الاقتصادي. وهو يرى أن »النرجسية الليبرالية المحافظة« باتت تفرض سيطرتها بشكل حاسم على العالم، وأن هذا لن ينتهي قريباً، بل يتنبأ بأن لن يتحقق تغيير إيجابي في العالم الحالي، ما لم يتم فك الحصار الذي تمارسه الثقافة الغربية على خناق العالم، وهذا حسب رأي المؤلف ليس وشيك الحدوث. لكن الليبرالية الجديدة ومعها المحافظون الجدد ظاهرة عابرة على أغلب تقدير، وهي أثارت في السنوات الأخيرة موجة من العداء للعولمة (بمفهوم الرأسمالية المتوحشة، ولما تجريه من تدمير للبيئة واستضعاف دول العالم الثالث واستغلال للإنسان ..)، وهي موجة ظهرت بالأساس في العواصم الغربية، ومن ثم اتسعت لتشمل الأطراف في العالم الثالث (عبر منظمات غير الحكومية). كما تصعب مناقشة ظاهرة العولمة (التي يصفها المؤلف بفرنجة العالم) دون الانتباه إلى ما يجري في مناطق أخرى من هذا الكوكب، وتحديداً في روسيا الاتحادية والصين واليابان والهند وأمريكا الجنوبية.

- وأخيراً يرى جورج قرم أن الحداثة، على الطريقة الأوروبية، قد فشلت في الانتقال إلى خارج الغرب لأنها بقيت مرادفة للفرنجة، ولأنها افتقرت إلى »فضيلة التواضع«، ولأنها فقدت جانباً مهماً من رسالتها الأولى المنادية بالقيم الجمهورية، وفشلت في خلق حاضرة تتسع للمواطنين كافة. ويخلص المؤلف، بعد الكثير من اللف والدوران واللغة التقريرية والتعميمات ذات الصفة المطلقة والاختزالات القسرية، إلى الدعوة إلى أن الحل يكمن في علمنة العلمانية، وهو ما يعني العودة إلى فلسفة الأنوار.

رئيس التحرير:
د. جورج جقمان

هيئة التحرير:
مي الجيوسي
أريج حجازي

المحرر المسؤول:
مهند عبد الحميد

مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية
رام الله، ص.ب: ١٨٤٥
تلفون: ٢٩٥١١٠٨-٢ (٩٧٢) - فاكس: ٢٩٦٠٢٨٥-٢ (٩٧٢)
بريد إلكتروني: muwatin@muwatin.org

تصدر هذه النشرة ضمن اتفاقية تعاون مع مؤسسة هينرخ بُل- ألمانيا - الآراء الواردة في النشرة لا تعبّر بالضرورة عن رأي مؤسسة مواطن أو مؤسسة هينرخ بُل